حيث

بين ثبات قواعد اللغة العربية وتطور صور الاستعمال

الدكتور عودة خليل أبو عودة*

ملخص

موضوع هذا البحث هو (حيث) التي تجمع مصادر النحو الكبرى أنها ظرف للمكان. وقد تتبع البحث قواعد (حيث) في كتب النحو، وفي معاجم اللغة وفي كتب الحروف ومعانيها، فلا تكاد تخرج هذه المراجع كلها عن أنها ظرف للمكان. ولكن دراسة (حيث) في واقع استعمالها في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف وفي النصوص الشعرية والنثرية قديماً وحديثاً، وفي واقع استعمال الناس اليوم يدل دلالة قاطعة على تطور دلالة هذا الظرف من حدود المكان إلى اتساع الزمان، كما يظهر في الشواهد العديدة التي تدل على ذلك، ثم إن التطور الكبير في مسيرة هذه الكلمة هو في استخدامها في لغة القانون، حيث أصبح الناس يستخدمونها بدلالة السبب، وبدلالة الشرط، حتى اشتقوا منها كلمة (حيثيات) التي تعني الملابسات والوقائع والأحداث التي تحيط بالقضية الحقوقية. فهل يمكن اعتبار (حيث) شاهداً على التطور التاريخي لدلالة الألفاظ، وهل يمكن أن يدرس اتحاد المجامع دلالتها الحديثة ويتخذ بشأنها قراراً مناسباً.

* مجمع اللغة العربية الأردني - عمان – الأردن

تمهيد:

انطلق الباحث في دراسته هذه من مبادئ عامة اعتمد عليها في وضع خطته وبناء بحثه، هذه المبادئ هي:

- قواعد اللغة الأساسية وأحكام التركيب اللغوي فيها، وهي القواعد التي استمدت في الأصل من كلام العرب، ووضعت من أجل استقامة اللسان العربي، سواء أكان من أهل العربية أو ممن اتصل بهم وتعلّم لغتهم على مر العصور.
- مراعاة قواعد التطور اللغوي، والتنبه إلى أسبابه وظواهره وعوامله ومظاهره، وأثر ذلك كله في تطور دلالة المفردة من خلال التركيب اللغوي الذي ترد فيه، والاستئناس بهذه العوامل والظواهر في تفسير تطور دلالة المفردة أو التركيب اللغوي الخاص، أو في تتبع ما قد تؤول إليه الصيغة المعروفة إلى صيغ أخرى وفق قانون الاشتقاق الذي يعد خصيصة كبرى تمتاز بها اللغة العربية بشكل ملحوظ.
- النظر في أثر السياق في بيان دلالة المفردة، أو الصيغ المشتقة منها. إذ إن الدراسات اللغوية قديماً وحديثاً ترى أن الدلالة على حقيقة المعنى لا تكون إلا من خلال إنعام النظر في أساليب انتظام الألفاظ في سياق معين.

ولبيان هذه المبادئ الثلاثة بإيجاز أقول: إن علماء اللغة الأصول، والنحاة الأوائل يقررون بيقين أن النحو إنما استمد من لغة العرب وأنه وضع لحمايتها ولصيانة نصوصها السامية ولتقويم الألسنة الناطقة بها عند الوقوع في اللحن على مر العصور. يقول ابن جني في تعريف النحو ووظيفته: "هو انتحاء سمتِ كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذ بعضهم عنها رد به إليها".[1]

(1) الخصائص، لابن جني، ج1 ص34.

وقد انشغل علماء اللغة الأثبات منذ وقت مبكر بوضع قواعد اللغة، ورسم حدودها، وتثبيت أسسها، لخدمة كتاب ا عز وجل في المقام الأول، ولمقاومة ما قـد أصـبح يظهر على ألسنة الناس من لحن وخطأ بسبب اتساع رقعة البلاد الإسلامية، ودخـول الناس من شتى الشعوب في دين ا ، واتساع ساحة العلوم التي انبثقت في ظلال كتاب ا عز وجل، لتفسيره وبيان وجوه إعجازه، والحديث عن بلاغته وبيانه، ولذلك كانت علوم النحو واللغة والبلاغة على رأس العلوم التي اهتم بها علماء اللغة اهتماماً كبيـراً وبينوا خصائصها وميزاتها. وقد تحدثوا باهتمام عن خصيصة الاشـتقاق وخصيصـة الإعراب، وكيف يمكن أن يتشكل من الجذر الواحد في اللغة عشرات مـن الأسـماء والأفعال، لكل صيغة منها دلالته في السياق. وكيف يمكن أن تقوم الحركة الصـغيرة من فتحة أو ضمة أو كسرة ببيان الدلالة المقصودة في التركيب اللغوي. ثم إن بعـض كلمات اللغة تعرب بالحروف لا بالحركات، أي بعلامات الإعراب الفرعية، وفي هـذا يبدو جمال هذه اللغة البديعة وكمالها وتنوع دلالاتها. فالواو في الأسماء الخمسة ليست كالواو في الأفعال الخمسة، وكذلك الألف في كل منهمـا؛ إن أحكـام اللغـة كثيـرة، وأنظمتها عديدة، ولكل نظام دلالته ودوره في بيان المعنى.

وتمضي اللغة مع الأيام والسنين، ويعرض لها ما يعرض للكائن الحي مـن مظـاهر التطور والتغير نتيجة عوامل كثيرة منها عوامل تتعلق باللغة نفسها وعلاقاتهـا باللغـات الأخرى، وأكثر ما يظهر هذا التطور في تأثر الأصوات اللغوية بعضها ببعض، وما ينشأ عن ذلك من ظواهر تحدثوا عنها في قوانين المماثلة والمخالفة التي تفسر تشـكل بعـض الأصوات، والصيغ الجديدة التي تسهم في تطور الدلالة في الاسـتعمال. وهنـاك أيضـاً عوامل اجتماعية ونفسية كحضارة الأمة ونظمها وتقاليدها وعقيدتها وثقافتها واتجاهاتهـا الفكرية، فضلاً عن العوامل الأدبية وما تنتجه ملَكاتُ الناطقين باللغة من نماذج الإبـداع، وما يرافق ذلك من مناهج نقدية وتوجيهات وآراء توجه الأدباء وجهات كثيرة، وتصطرع فيها المذاهب الأدبية، والمدارس النقدية، وكل ذلك يؤثر في مسيرة اللغة ودلالة الألفاظ من خلال صور الاستعمال المتعددة.

على أن ذلك كله يخضع خضوعاً تاماً لقوانين السياق اللغوي في تشكيل دلالة الألفاظ؛ لأن هذه الألفاظ تبقى مواد أولية لا قيمة لها إلا بدلالتها الذاتية قبل أن تنظم وتتشكل في تراكيب لغوية تعبر عن مواقف حية في حياة الناس. وفي هذا يقول عبد القاهر الجرجاني: "...لأن الألفاظ ليست إلا سمات للمعاني وأوضاعاً قد وضعت لتدل عليها، فليست لها قيمة من غير تأليف"(1) ويستطيع المرء أن يستخلص من دراسات العلماء العرب في قواعد النحو وألوان البلاغة وأسرار النظم، ودلائل الإعجاز ما يمكن أن يعد أصولاً نظرية علمية في أثر السياق في بيان الدلالة وتفسيرها، أما في الدراسات اللغوية المعاصرة فقد أصبح للسياق أهمية كبيرة، إذ كثرت الدراسات المتخصصة في الأسلوبية، وفي الاتجاهات الوظيفية في بعض أبواب النحو والبلاغة، وفي الشروط الخاصة للصناعة المعجمية الحديثة، وفي الدراسات الوافرة في ميدان التطور الدلالي.

استخدمت الدراسات اللغوية الحديثة مصطلح سياق الحال، ولعل العالم البولندي (مالينوفسكي) هو أول من استخدم هذا المصطلح. والسياق الذي يعنيه هذا الباحث هو "البيئة الطبيعية أو الواقع الثقافي للمجتمع"(2)

ثم تطورت دلالة السياق في بحوث (فيرث)، الذي "نظر إلى المعنى على أنه نتيجة علاقات متشابكة متداخلة، فهو ليس فقط وليد لحظة معينة بما يصاحبه من صوت وصورة، ولكنه أيضاً حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الأشخاص في المجتمع، فالجمل تكتسب دلالتها في النهاية من خلال ملابسات الأحداث، أي من خلال سياق الحال. (3)

وليس أدل على أهمية السياق في بيان الدلالة من تعريف ستيفن أولمان للترادف في اللغة من أن (المترادفات هي ألفاظ متحدة في المعنى وقابلة للتبادل بينها في أي

(1) عبدالقاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، ص98.
(2) انظر: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص82.
(3) الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص81-82.

سياق)[1]، فهو يرى أن السياق هو الذي يحدد دلالة الكلمة، ويرى أن لكل كلمة في اللغة معناها وإيحاءها وظلالها التي تستمدها من الموقف الحيوي الذي تقال فيه.

بعد هذا البيان عن حرص العلماء السابقين على خدمة هذه اللغة الشريفة، وجهدهم في رسم أصولها الثابتة وقواعدها الراسخة التي تحمي اللسان العربي من اللحن والخطأ، وتحمي اللغة من الضعف والتشتت، وبعد الإشارة إلى ما قد يصيب اللفظة المفردة أو التركيب اللغوي المأثور من تطور في دلالته أو في اشتقاقه أو في صور استعماله، من خلال الاستخدام الواقعي الحي، أردت أن أتمثل ذلك كله في مسيرة لفظة عربية أصيلة هي الظرف المبني (حيث)، إذ إنني رأيت في مسيرتها الدلالية عبر الأيام والسنين مثلاً واضحاً على التطور الدلالي، وشاهداً بيناً على أهمية هذه الدراسات التاريخية والاجتماعية في مجالات اللغة. رأيت في كلمة (حيث) سعةً في الدلالة وتنوعاً في الاستعمال الاجتماعي. وتطوراً في التركيب اللغوي، بين النظرية في مصادر النحو الكبرى والاستعمال في واقع الحياة العامة. وقد رصدت في أثناء بحثي فيها أو عنها، شواهد كثيرةً في الاستعمال قديماً وحديثاً، مما شجعني على الاستمرار في هذا البحث. وقد رأيت أن أبدأ برصد الجانب النظري للمسألة وهو المتمثل في وضع الكلمة في قواعد اللغة الأساسية المستمدة من مصادر النحو الكبرى. ثم أتتبع الكلمة في كتب الحروف ومعانيها ودلالاتها. وهذا يساعد في بناء قاعدة نظرية للأصول التي بنيت عليها هذه الكلمة. ثم أُتْبع ذلك برصد الصورة الدلالية للكلمة في الاستعمال الفعلي. وهذا يقتضي تتبع الكلمة في معاجم اللغة وفي استعمال الناس الواقعي في مجالات الحياة العامة. أما معاجم اللغة فإنها تنقل الصورة التي عليها الكلمة وتتعرض أحياناً لبعض قواعد اللغة، ولكنها تهتم بمعاني الكلمة ودلالاتها في صيغها المختلفة، وتورد من الشواهد والنصوص ما يبين المعنى ويثبته. وقد لاحظت أن بعض الأقوال تتكرر في المعاجم اللاحقة نقلاً عن السابقة، وهذه في

(1) دور الكلمة في اللغة، ص98.

"الحقيقة سمة واضحة في التراث العربي الإسلامي الكبير، سواء أكان ذلك في المعاجم أو كتب البلدانيات أو تراجم الأدباء والنبلاء أو المصادر الأدبية الكبرى. ولذلك قد نجد شبهاً كبيراً ما بين ما قاله الأزهري في التهذيب عن حيث وما قاله بعد ذلك ابن منظور في لسان العرب. وقد حرصت أن أثبت ذلك حتى يرى القارئ صورة دقيقة لموقف علماء اللغة من هذه الكلمة عبر العصور.

أما في مجال دلالة السياق فقد حرصتُ على إثبات نصوص وأقوال وردت فيها (حيث) قديماً وحديثاً لمحاولة فهم معناها ودلالتها. وقد رأيت أن يكون تسلسل ذلك بدءاً من القرآن الكريم وبعض الأحاديث الشريفة، ثم ما ورد من أمثلة وشواهد على الكلمة في الأدب العربي ولا سيما في الشعر، قديماً وحديثاً. حتى إذا كان العصر الحديث رأيت الكلمة تتشكل في صيغ جديدة، ودلالات متطورة، لم تكن معروفة من قبل. وجدت (حيث) تفيد السببية والتعليل مثلما تفيده (الباء) أو (من) أو (عن) في حروف الجر. ووجدت (حيث) تتخذ شكلاً جديداً في التركيب هو (حيثيات) وقد جاءت هذه الكلمة جمعاً لكلمة (حيث) التي تكررت في لغة القانون حتى صارت مصطلحاً قانونياً يعني الظروف والملابسات التي تحيط بالقضية. وقد انتشرت الكلمة في المرافعات القانونية وفي نصوص الدستور كما سنرى في هذا البحث. إن هذه الصور الجديدة تجعل من المفيد عرض جوانب هذا التطور الدلالي في الاستعمال، وهذا قد يجعل منها صفحة دالة من صفحات المعجم التاريخي للغة. وقد وجدت أن مصادر النحو الكبرى، وكتب اللغة والحروف والأدوات ومعاجم اللغة المتوالية تُجمع –تقريباً- على أن (حيث) ظرف للمكان ليس غير. وفي مرات قليلة لا تكاد تظهر وجدت أحد النحاة (كالأخفش) يقول بصوت ضعيف خافت (وقد ترد للزمان) مع أن دراسة دلالة الكلمة في آيات القرآن الكريم، والحديث الشريف، ونصوص الشعر والنثر، واستخدامها المعاصر يدل على أن استخدامها للدلالة على الزمن يكاد يماثل استعمالها في الدلالة على المكان. إن هذا البحث سوف يتتبع هذه المراحل كلها ليقدم صورة واضحة عن استعمال حيث في حياة الناس عبر العصور.

(حيث) في مصادر النحو الكبرى:

تحدث سيبويه في باب طويل سماه (عدة ما يكون عليه الكلم)[1] بدأه بالحديث عن أقل ما تكون عليه الكلمة وهو الحرف الواحد، ثم عن الذي يلي ما يكون على حرف وهو ما يكون على حرفين، وقد مضى في هذا إلى أن وصل إلى ما جاء على ثلاثة أحرف وهو (أكثر الكلام في كل شيء من الأسماء والأفعال وغيرهما مزيداً فيه وغير مزيد فيه، وذلك لأنه كأنه هو الأول، فمن ثم تمكن في الكلام)[2] وفي هذا الموضع تحدث عن (على) و (إلى) و(حسب) وأسماء وظروف كثيرة حتى وصل إلى (حيث) فقال: "وأما حيث فمكان بمنزلة قولك هو في المكان الذي فيه زيد)[3]. و (حيث) ظرف مبني على الضم، ولكن بعض العرب يبنونه على الفتح، يقول سيبويه "فأما ما كان غاية نحو: قبلُ وبعد وحيثُ فانهم يحركونه بالضمة، وقد قال بعضهم: حيثَ شبهوه بأين..."[4]. وبعض العرب يقول (حوث)، يقول سيبويه: "ومنهم من يقول ذيت، فيخفف، ففيها إذا خففت ثلاث لغات: منهم من يفتح كما فتح بعضهم حيثَ وحوثَ،..."[5]

وتحدث المبرد عن هذا الظرف في كتابه المقتضب "وحيث اسم من أسماء المكان، مبهم، يفسره ما يضاف إليه، فحيث في المكان كحين في الزمان، فلما ضارعتها أضيفت إلى الجمل، وهي الابتداء والخبر أو الفعل والفاعل، فلما وصلْتَها بما امتنعت عن الإضافة فصارت كإذ إذا وصلتها بما.[6]

(1) كتاب سيبويه 216/4.
(2) المرجع السابق 230/4.
(3) كتاب سيبويه 233/4.
(4) السابق 286/3.
(5) السابق 292/3.
(6) المقتضب للمبرد بتحقيق محمد عبدالخالق عضيمة 54/2.

وفي بنائها على الضم يقول المبرد: "فمن جعل حيثُ مضـمومةً – وهـو أجـود القولين- فإنما ألحقها بالغايات، نحو من قبلُ ومن بعد ومن علُ يا فتى، وابدأ بهذا أولُ يا فتى، ونحوه، ومن فتح فللياء التي قبل آخره، وأنه ظرف بمنزلة (أين) و (كيف)" (1)

وفي كتابه "الأصول في النحو" تحدث ابن السراج عن (ما منع الإضافة إلى الواحد وأضيف إلى جملة) فقال: وذلك حيث وإذ وإذا، فأما حيثُ فإن من العرب من يبنيهـا على الضم، ومنهم من يبنيها على الفتح، ولم تجئ إلا مضافة إلى جملة نحو: قولـك: أقوم حيث يقوم زيد، وأصلي حيث يصلى، فالحركة التي في الثاء لالتقـاء السـاكنين، فمن فتح فمن أجل الياء التي قبلها، وفتح استثقالاً للكسر، ومن ضم فلشَبهها بالغايات إذ كانت لا تضاف إلى واحد، ومعناها الإضافةُ. وكان الأصل فيها أن تقول: قمت حيـثُ زيد كما تقول قمت مكان زيدٍ) (2)

وعندما تحدث الزمخشري في المفصل عن (الظروف) قال: "وشُبه (حيثُ) بالغايات من حيث ملازمتها الإضافة، ويقال حيث وحوث بالفتح والضم فيهما"(3)

وفي كتاب الكافية لابن الحاجب عند الحديث عن المفعول فيه يقول: "وقد يجيء حيـث وإذ متصرفين نحو (ا أعلم حيث يجعل رسالته) وقوله تعالى (بعد إذْ ُأنزلت). (4)

وعند الحديث عن إضافة الظروف يقول "ومنها حيث ولا يضاف إلا إلى جملة فـي الأكثر) وفي شرح هذا يقول الشيخ رضى الدين "اعلم أن الظروف المضافة إلى الجمل على ضربين إما واجبة الإضافة إليها بالوضع وهي ثلاثة لا غير حيث في المكـان، وإذ وإذا في الزمان، على خلاف..." (5)

---

(1) المرجع السابق ج3 ص178.
(2) الأصول لابن السراج، ج2 ص143-144.
(3) المفصل ص169.
(4) كتاب الكافية في النحو 187/1 والآية الأولى هي 124 من الأنعام والثانية 87 من القصص.
(5) الكافية في النحو، 103/2.

وفي شذور الذهب لابن هشام قال: "الرابع من المنصوبات الخمسة عشر المفعول فيه، ويسمى الظرف، وهو عبارة عما ذكرتُ، والحاصل أن الاسم قد لا يكون ذكر لأجل أمر وقع فيه ولا هو زمان ولا مكان... وقد يكون إنما ذكر لأجل أمر وقع فيه ولكنه ليس بزمان ولا مكان... وقد يكون العكس نحـو... (ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَه...) [1] فهذه الأنواع لا تسمى ظرفاً في الاصطلاح بل كل منها مفعول به، وقع الفعل عليه لا فيه، يظهر ذلك بأدنى تأمل للمعنى"[2] فابن هشام هنا يجعل (حيث) مفعولاً به لفعل محـذوف يفسره اسم التفضيل الذي لا يعمل في المفعول به. ولكنه في موضع آخر[3]، فصل القول في (حيث) حيثُ[4] قال: "ومثال ما بني على الضم (حيثُ) وهو ظـرف مكـان يضـاف للجملتين، وربما أضيف لمفرد كقوله:

أما تـَرى حيـثُ سهيـلٍ طالعـا[5]

وقد يفتح وقد يكسر، وبعضهم يعربـه، وقـرئ (سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ) [6] بالكسر فيحتمل الإعراب والبناء.

(حيث) في كتب الأدوات والحروف واللغة:

اكتفى أبو القاسم الزجاجي عندما تحدث عن (حيث) بأن قال: "حيث مكان"[7]. ولم يفسر الزجاجي سبب إيراده (حيث) وغيرها من الأسماء والظروف في كتابه حروف المعاني، ولكن محقق الكتاب فسر ذلك بقوله: "ولعله أدخل في الكتاب أسماء وأفعالاً إلى جانب حروف المعاني، جرياً على طريقته في كتابه (الجمل في النحو) إذ

(1) سورة الأنعام 124.
(2) شذور الذهب، ص300-301.
(3) المصدر السابق، ص168.
(4) انظر إلى استعمال (حيث) المعاصر بمعنى (حين).
(5) وتمام البيت: نجماً يضيء كالشهاب لامعاً.
(6) في سورة الأعراف (182) والقلم (44).
(7) كتاب حروف المعاني، لأبي القاسم الزجاجي، ص6.

أطلق على كان وأخواتها: باب الحروف التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار. فأطلق عليها حروفاً وهو في هذا يخالف الجمهور، وقد حاول أبو اسحق إبراهيم بن أحمد الغافقي تعليل هذه التسمية بأمرين: أحدهما: أنه أراد بالحروف الكلم، وذكر ابن بابشاذ أن في تسمية الزجاجي لهذه الأفعال حروفاً تسامحاً"[1] ، ولكن بعض كتب الحروف ككتاب أبي الحسين المزني، وكتاب أبي الحسين الرماني لم يخلط بين الحروف والأسماء فلم يرد فيها شيء عن حيث.

وفصل ابن هشام الأنصاري في (مغني اللبيب) الحديث عن (حيث) فقال: "حيثُ، وطِيء تقول حوثُ. وفي الثاء فيهما.الضم تشبيهاً بالغايات. لأن الإضافة إلى الجملة كلا إضافة، لأن أثرها – وهو الجر- لا يظهر، والكسر على أصل التقاء الساكنين، والفتح للتخفيف.

ومن العرب من يعرب (حيث)، وقراءة من قرأ (مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ)[2] تحتملها وتحتمل لغة البناء على الكسر.

وهي للمكان اتفاقاً. قال الأخفش: وقد ترد للزمان. والغالب كونها في محل نصب على الظرفية أو خفض بمن، وقد تخفض بغيرها. كقوله:

فشد ولـم ينظـر بيوتـاً كثيرةً لدى حيثُ ألقـتْ رحلَها أم قشْعـم

وقد تقع حيث مفعولاً به وفاقاً للفارسي، وحمل عليه (ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ)[3] إذ المعنى أنه تعالى يعلم نفس المكان المستحق لوضع الرسالة فيه، لا شيئاً في المكان، وناصبها يعلم محذوفاً مدلولاً عليه بأعلم، لا بأعلم نفسه، لأن أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به"[4]

(1) المرجع السابق، ص27 من القسم الأول (الدراسة).
(2) سورة الأعراف من الآية 182 وفي سورة القلم الآية 44.
(3) سورة الأنعام، من الآية 124.
(4) مغني اللبيب،ج1، ص131-132.

وتحدثت كتب الحروف الحديثة عن حيث، ومنها المعجم الوافي في النحو العربي الذي ورد فيه:

حيث: ظرف مكان مبني على الضم في محل نصب، إذا لم يتقدم عليها حرف الجر (من) فحينئذ تكون في محل جر. ونادراً ما ترد للزمان أو تجر بغير من... وهي من الألفاظ الملازمة للإضافة إلى الجملة الاسمية والأحسن ألا يكون الخبر فيها فعلاً، نحو: اجلس حيث زيد جالس – أو إلى الجملة الفعلية، نحو: اجلس حيث وقف زيد أو يقف زيد. فالجملة الاسمية من (زيد جالس) أو الفعلية من (وقف زيد) في محل جر مضاف إليه. ولا يضاف من ظروف المكان إلى الجمل غير (حيث). ومن النادر جداً إضافتها إلى المفرد.... وأجاز الفراء كونها اسم شرط جازم يجزم فعلين دون اتصالها بما ولم يوافقه أحد... وهي معربة في لغة فقعس، وذكر الأخفش أنها قد تكون ظرف زمان[1]...ثم تحدث عن (حيثما) حيث قال:

-" حيثما: شرط مبني على الضم في محل نصب يجزم فعلين: الأول فعل الشرط، والثاني جوابه، نحو حيثما تستقم يقدر لك ا   نجاحاً في غابر الأزمان

وهي: (حيث) وضعت للدلالة على المكان، ثم ضمنت معنى الشرط، واتصال ما الزائدة بها كفها عن الإضافة." [2]

ومن الجدير بالذكر أن النحاة اهتموا بهذا الشاهد وعده بعضهم دليلاً على أن (حيث) تكون للزمان، قال ابن هشام في مغني اللبيب: "وهذا البيت دليل عندي على مجيئها للزمان".[3]، مع أنه قال قبل سطور من هذا الحكم "وهي للمكان اتفاقاً، قال الأخفش وقد ترد للزمان"[4]

(1) المعجم الوافي في النحو العربي، ص148، ببعض الاختصار.
(2) المعجم الوافي في النحو العربي، ص149.
(3) مغني اللبيب، ج1 ص133.
(4) المصدر السابق، ج1 ص131.

وخص الدكتور فخر الدين قباوة (حيث) في صفحات مفيدات ذكر فيها أن (حيث) تقع ظرفاً للمكان، وقد تكون ظرفاً للزمان أو أنها تقع اسماً يعرب وفق موقعه في الجملة، فقد تكون مبتدأ أو مفعولاً به، أو مجروراً بحرف جر، أو مضافاً إليه، أو غير ذلك من مواقع الدلالة والإعراب[1]. قال: وربما وقعت (ما) الزائدة بعد حيث، فظن بعض الناس أنها (حيثما) الجازمة. ورأى أن (ما) في هذه الحالة يجب أن تفصل إملائياً عن حيث للتمييز بين حيث ما وحيثما. ومثل على هذا يقول ابن هرمة[2]

وأنني حيث ما يثني الهوى بصري ... من حيث ما سلكوا أدنو فانظور

وهي هنا داله على المكان بكل تأكيد.

حيث في معاجم اللغة

يحسن أن نبدأ الحديث عن (حيث) في معاجم اللغة بما ورد عنها في معجم العين من حيث إنه من أقدم معاجم اللغة إن لم يكن أقدمها على الإطلاق. قال الخليل: "حيث، حوثُ، للعرب في حيث لغتان، واللغة العالية حيث، الثاء مضمومة، وهو أداة للرفع يرفع الاسم بعده، ولغة أخرى: حوثُ رواية عن العرب لبني تميم، قال[3]:

ولكـن قذاهـا واحـد لا نريده ... أتتنا بها الغيطان من حوث لا ندري

ولشد ما اختصر ابن فارس كلامه عن حيث في مجمل اللغة، حيث قال: " حيث كلمة مضمومة تدل على المكان"[4]. وفي معجمه مقاييس اللغة أضاف شيئاً يسيراً فقال: "الحاء والياء والثاء ليست أصلاً، لأنها كلمة موضوعة لكل مكان وهي مبهمة، تقول: اقعد حيث شئت، وتكون مضمومة، وحكى الكسائي فيها الفتح أيضاً"[5].

---

(1) انظر إعراب الجمل وأشباه الجمل، ص209-212.

(2) المرجع السابق، ص212.

(3) كتاب العين، للخليل بن احمد الفراهيدي، ج3 ص285، والبيت للأخطل في ديوانه ص 486. وفيه بعض الاختلاف عن رواية العين.

(4) مجمل اللغة لابن فارس، مادة حيث.

(5) مقاييس اللغة لابن فارس، مادة حيث.

وقال الأزهري في تهذيب اللغة:

"قال الليث: للعرب في حيثُ لغتان، واللغة العالية، حيثُ: الثاء مضمومةٌ، وهو أداةٌ للرفع ترفع الاسم بعده. ولغةٌ أخرى حوثَ رواية عن العرب لبني تميم، يظنون حيثُ في موضع نصب يقولون القَه حيثُ لقيتَه. ونحو ذلك كذلك.

وقال أبو الهيثم حيث ظرفٌ من الظروف يحتاج إلى اسمٍ وخبر؛ وهي تجمع معنى ظرفين كقولك: حيث عبدا قاعد زيد قائم، المعنى الموضع الذي فيه عبدا قاعد زيد قائم. قال: وحيث من حروف المواضع لا من حروف المعاني، وإنما ضمتْ لأنها ضمنت الاسم الذي كانت تستحق إضافتها إليه. قال: وقال بعضهم: إنما ضمتْ لأن أصلها حوثُ، فلما قلبوا واوها ياء ضموا آخرها.

قال أبو الهيثم: وهذا خطأٌ؛ لأنهم إنما يعقبون في الحرف ضمة دالّة على واوٍ ساقطة.

وقال أبو حاتم؛ قال الأصمعي: ومما تخطئ فيه العامةُ والخاصة باب حيثُ وحين، غلط فيه العلماء مثلُ أبي عبيدة وسيبويه.

وقال أبو حاتم: رأيت في كتاب سيبويه شيئاً كثيراً يجعل حين حيثُ، وكذلك في كتاب أبو عبيدة بخطه.

قال أبو حاتم: واعلم أن حيثُ وحين ظرفان، فحين ظرفٌ من الزمان، وحيثٌ ظرفٌ من المكان، ولكل واحدٍ منهما حد لا يجاوزه. والأكثر من الناس جعلوهما معاً حيثُ، والصواب أن تقول: رأيتك حيثُ كنت، أي الموضع الذي كنت فيه واذهب حيثُ شئتَ أي إلى أي موضع شئت.

وقال ا جل وعز :"فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا"[(1)].

ويقال: رأيتك حين خَرج الحاج أي في ذلك الوقت، فهذا ظرفٌ من الزمان، ولا يجوز حيثُ خرج الحاج، وتقول: ائتِني حين يقدم الحاج، ولا يجوز حيثُ يقدم الحاج، وقد صير الناس هذا كله حيثُ، فليتعهد الرجل كلامه، فإذا كان موضع يحسن فيه أين

(1) سورة الأعراف 19.

وأي موضع فهو حيثُ؛ لأن أين معناه حيثُ. وقولهم حيثُ كانوا وأين كانوا، معناهما واحد، ولكن أجازوا الجمع بينهما، لاختلاف اللفظين.

واعلم أنه يحسن في موضع حين لما وإذ وإذا ووقت ويوم وساعة ومتى. تقول رأيتك لما جئت وحين جئت وإذ جئت، ويقال: سأعطيك إذا جئت ومتى جئت.

وقال ابن كيسان حيث حرف مبني على الضم وما بعده صلةٌ له يرتفع الاسم بعده على الابتداء، كقولك قمتُ حيثُ زيد قائم، والكوفيون يجيزون حذفَ قائم ويرفعون زيداً بحيث، وهو صلةٌ لها، فإذا أظهروا قائماً بعد زيد أجازوا فيه الوجهين، الرفع والنصب، فيرفعون الاسم أيضاً وليس بصلة لها وينصبون خبره ويرفعونه فيقولون: قامت مقام صِفَتين، والمعنى زيد في موضع فيه عمرو، فعمرو مرتفع بفيه وهو صلةٌ للوضع، وزيد مرتفع بفي الأولى وهي خبر وليست بصلة لشيء، قال: وأهل البصرة يقولون حيث مضافةٌ إلى جملة فلذاك لم تخفِض، وقد أنشد الفراء بيتاً أجاز فيه الخفض:

أمـا ترى حيـثُ سهيلٍ طالعـا

فلما أضافها فتحها كما يفعل بعند وخَلْفَ. (1)

- وفي الصحاح تحدث الجوهري عن حيث فقال: حيث كلمة تدل على المكان، لأنـه ظرف في الأمكنة، بمنزلة حين في الأزمنة. وهو اسم مبني، وإنما حـرك آخـره لالتقاء الساكنين. فمن العرب من يبنيها على الضم تشبيهاً بالغايات؛ لأنها لم تجـئ إلا مضافة إلى جملة. كقولك أقوم حيث يقوم زيد، ولم تقل حيث زيد، وتقول حيث تكون أكون، ومنه من يبنيها على الفتح، استثقالاً للضم مع الياء.

وهي من الظروف التي لا يجازى بها إلا مع ما. تقول: حيثما تجلِس أجلس. في معنى أينما. وقوله تعالى (وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ) (1) في حرف ابن مسـعود (أين أتى). والعرب تقول: جئت من أين لا تعلم، أي من حيث لا تعلم. (2)

(1) تهذيب اللغة، مادة حيث.

أما صاحب اللسان فقد أفاض القول في حيث وقد كرر فيه كثيراً مما ورد في التهذيب، فقال: "حيث ظرف مبهم من الأمكنة مضموم، وبعض العرب يفتحه، وزعموا أن أصلها الواو، قال ابن سيده: وإنما قلبوا الواو ياء طلب الخفة، قال وهذا غير قوي. وقال بعضهم: أجمعت العرب على رفع حيثُ في كل وجه، وذلك أن أصلها حوثُ، فقلبت الواو ياء لكثرة دخول الياء على الواو، فقيل حيث، ثم بنيت على الضم لالتقاء الساكنين، واختير لها الضم ليشعر ذلك بأن أصلها الواو، وذلك لأن الضمة مجانسة للواو فكأنهم أتبعوا الضم الضم. قال الكسائي: وقد يكون فيها النصب يحفِزها ما قبلها إلى الفتح. قال الكسائي: سمعت في بني تميم من بني يربوع وطُهيةَ من ينصب الثاء على كل حال في الخفض والنصب والرفع، فيقول: حيثَ التقينا. ومن حيثَ لا يعلمون. ولا يصيبه الرفع في لغتهم. قال: وسمعت في بني أسد بن الحارث بن ثعلبة وفي بني فقعس كلّها يخفضونها في موضع الخفض وينصبونها في موضع النصب، فيقول: من حيثِ لا يعلمون، وكان ذلك حيثَ التقينا. وحكى اللحياني عن الكسائي أيضاً أن منهم من يخفض بحيثُ(3)، وأنشد:

أما ترى حيثَ سهيلٍ طالعاً

قال: وليس بالوجه. قال: وقوله أنشده ابن دريد:

بحيث ناصي اللمم الكباثا مور الكثيب فجرى وحاثا

قال: ويجوز أن يكون أراد (وحثا) فقلب. و (عن) الأزهري عن الليث: للعرب في حيث لغتان: فاللغة العالية: (حيثُ) الثاء مضمومة، وهو أداة للرفع يرفع الاسم بعده، ولغة أخرى (حوثُ) رواية عن العرب لبني تميم يظنون حيثُ في موضع نصب يقولون: إلقه حيثُ لقيته ونحو ذلك كذلك، وقال ابن كيسان: حيثُ حرف مبني على الضم وما بعده صلة له. يرتفع الاسم بعده على الابتداء كقولك: قمت حيثُ زيد قائم...

(1) سورة طه، الآية 69.
(2) الصحاح، مادة (حيث).
(3) أي يجعل حيث مضافاً والمفرد بعدها مضافاً إليها.

وقال أبو الهيثم حيث ظرف من الظروف يحتاج إلى اسم وخبر وهي تجمـع معنـى ظرفين كقولك: حيث عبدا قاعد زيد قائم؛ المعنى الموضع الذي فيه عبدا قاعد زيد قائم. قال: وحيث من حروف المواضع لا من حروف المعاني وإنمـا ضـمت لأنهـا ضمنت الاسم الذي كانت تستحق إضافتها إليه. قال: وقال بعضهم إنمـا ضـمت لأن أصلها حوثُ فلما قلبوا واوها ياء ضموا آخرها. قال أبو الهيثم وهذا خطأ لأنهم يعقبون الحرف ضمة دالة على واو ساقطة... ... ...قال الأصمعي: ومما تخطئ فيه العامـة والخاصة باب حين وحيث غَلِطَ فيه العلماء مثل أبي عبيدة وسيبويه. قال أبـو حـاتم: رأيت في كتاب سيبويه أشياء كثيرة يجعل حين حيث. وكذلك في كتاب أبـي عبيـدة بخطه. قال أبو حاتم: واعلم أن حين وحيث ظرفان فحين ظرف من الزمـان وحيـث ظرف من المكان ولكل واحد منهما حد لا يجاوزه، والأكثر من الناس جعلوهما معـاً حيثُ. قال: والصواب أن تقول: رأيتك حيثُ كنت أي في الموضع الذي كنـت فيـه واذهب حيث شئت أي إلى موضع شئت. وقال ا عز وجل(فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا) [1].

ويقال رأيتك حين خرج الحاج أي في ذلك الوقت، فهذا ظرف من الزمان ولا يجـوز حين خرج الحاج، ونقول: ائتني حين يقْدم الحاج ولا يجوز حيث يقدم الحـاج، وقـد صير الناس هنا كله حيث، فليتعهد الرجل كلامه، فإذا كان موضع يحسن فيـه أيـن، وأي موضع، فهو حيثُ لأن أين معناه حيثُ، وقولهم حيث كانوا وأين كانوا معناهمـا واحد. ولكن أجازوا الجمع بينهما لاختلاف اللفظين. [2]

وهذا –كما ترى- بحث مكتنز في حيث وآراء العلماء فيها، ودلالتها وترى فيـه أن توجه الناس إلى استخدامها ظرفاً للزمان كان قديماً قبل أن يصبح هذا حقيقة واقعة في الاستعمال.

(1) سورة الأعراف، 19 وفي اللسان ورد (وكلا) خطأ.
(2) لسان العرب، مادة حيثُ.

أما في القاموس المحيط، فقد ورد القول عن حيث مختصراً جداً، هو قوله: "حيث كلمة دالّة على المكان كحين في الزمان، ويثلّث آخره"[1].

(حيث) في الاستعمال ودلالة السياق:

مر بنا أن معظم مصادر النحو وكتب اللغة والمعاجم تقرر أن (حيث) ظرف للمكان، وقليل من العلماء –كالأخفش- يقول بضعف وتردد إنها ظرف للزمان. وسنرى في الصفحات التالية من البحث، أن حيث مثّلٌ على ظرف الزمان والمكان وأن لها استعمالات أخرى تظهر في سياق التعامل الاجتماعي. ولكن يحسن أن أشير هنا إلى أن الكلمة لا تؤدي دلالتها المقصودة مفردة بل تؤديه من خلال سياق لغوي قائم. فالكلمات مفردةً هي المواد الأولية التي تتشكل حسب أنظمة مختلفة لتقدم مفهوماً محدداً، هذه المواد الأولية لا قيمة لها بذاتها، فهي تبقى معنى مجرداً حتى يصوغها المتكلم في جمل وتراكيب لغوية يحاول بها أن يقدم أفكاره إلى الآخرين، وهذا ما نسميه المعنى السياقي.

إن (حيث) مفردةً كلمةٌ تدل على ظرف، يقع فيه الفعل، وقد كاد العلماء أن يجمعوا أنها ظرف للمكان. ولكن دراسة السياق الذي وردت فيه (حيث) في كثير من الشواهد، شعراً أو نثراً يشْعر بأنها تدل على الزمان دلالة واضحة، لكأنّهم استشعروا فيها دلالة الظرفية فصاروا يستخدمونها للمكان والزمان على حد سواء، قبل أن تتحول في العصر الحديث إلى مصطلح قانوني يدل على السبب، ويحمل معنى الشرط. وقد اعترف بعض العلماء بأن الناس صاروا يستعملون (حيث) لدلالة الزمن قديماً، ولذا وجدنا (أبو حاتم) ينتقد سيبويه أن رأى في كتابه أشياء كثيرة يجعل فيها حين حيث، مع أن حين عنده للزمن وحيث للمكان، ولكن الناس جعلوهما معاً حيث. ولعل في هذا إشارة واضحة إلى أثر التطور اللغوي في توجيه دلالات الألفاظ، فالقاعدة اللغوية تظل أصلاً من الأصول الثابتة،

(1) القاموس المحيط، مادة حيث.

لكن استعمال اللفظ في الحياة العامة قد يضفي عليه دلالة جديدة أو يضيف إليه من لفظه صيغة جديدة مشتقة، أو أن الناس يجدون فيه لدى انعام النظر، ورجع البصر ما لم يجده الدارسون من قبل، وهذا أمر بدهي لأن أنظار الدارسين في تحليل النصوص تختلف باختلاف فهمهم ومعرفتهم بالمواقف الحية التي استعمل فيها النص الأدبي. إن (حيث) في كثير من آيات القرآن الكريم، عند الدراسة الدقيقة تدل على الزمان، وإن لم يقل ذلك معظم المفسرين، وكذلك هي في كثير من النصوص الشعرية.

وسأورد في الصفحات الآتية صورة عن استعمال حيث أعرض صورتها في القرآن الكريم، وفي الحديث الشريف، وفي نصوص من الشعر العربي، وأحاول أن أشير إلى استعمالها دالة على المكان أو على الزمان، ثم انظر –بعد- في صورة استعمالها في حياة الناس، وما طرأ جراء ذلك عليها من تطور في الدلالة أو في التركيب.

1- استعمال (حيث) في القرآن الكريم:

وردت (حيث) في القرآن الكريم إحدى وثلاثين مرة، منها مرتان بصورة (حيثما) التي هي اسم شرط مبني على الضم في محل نصب يجزم فعلين. و (حيث) تدل دلالة واضحة على المكان في زهاء عشرين موضعا من هذه المواضع، ومنها:

- قال تعالى في سورة البقرة (150): "وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَه...".

- وقال تعالى في سورة يوسف (68): "وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ".

• وقال تعالى فـي سـورة النسـاء (89): "... فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا".

ومثل هذه الدلالة الواضحة على المكان نجدها في الآيات: 191، 199، 222 من سورة البقرة، وفي الآية الخامسة من سورة التوبة، وغيرها.

أما في الآيات الأخرى فإن السياق يحتمل أن تكون (حيث) دالّة على المكـان أو على الزمان إذ لا ضرورة لتقييد دلالتها بالمكان فقط. مثال ذلك:

• قوله تعالى في سورة الأعـراف (27): يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ".

فقوله (من حيث لا ترونهم) لا تعني بالضرورة من مكان لا ترونهم فيه، بل قـد تفيد أنه يراكم وأنتم لا تستطيعون رؤيته. وبذا تكون دلالتها (إنه يراكم في حين أنكم لا ترونه). جاء في تفسير القرطبي لهذه الآية الكريمة: "قال النحـاس: (مـن حيـث لا ترونهم) يدل على أن الجن لا يرون إلا في وقت نبي ليكون ذلك دلالة على نبوته، لأن الله جل وعز خلقهم خلقاً لا يرون فيه، وإنما يرون إذا نقلوا عن صورهم: "ذلك مـن المعجزات التي لا تكون إلا في وقت الأنبياء صلوات الله وسبحانه عليهم".[1]

فما الذي يمنع من أن تكون (حيث) هنا دالة على الزمن؟.

ومثال ذلك أيضاً:

(1) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ج7 س186.

- قوله تعالى في سورة البقرة (58): "وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ".

فهل (حيث) هنا دالة على المكان أم على الزمان؟ أم دالة على كليهمـا معـاً؟ أرى أنها تدل على تنوع المكان، وتعدد الزمان، لأن التخيير في أكل ما يشاؤون لا يلزمهم بوقت محدد، بل إن التخيير في أكل ما يريدونه يدل بالضرورة على تعـدد الأوقـات التي يختارون منها واستمرارها، ويدل على ذلك قوله عز وجل (وسنزيد المحسـنين). فهذه فرصة متاحة للمرء أن يختار ما يشاء وقت ما يشاء، ولاسيما أن دلالة (رغـدا) تؤكد ذلك، قال القرطبي: "ويقال: رغُد عيشُهم ورغِد (بضم الغين وكسرها)، وأرغـد القوم أخصبوا وصاروا في رغَدٍ من العيش[1]. وفي تفسير الألوسي قال: " (فكلوا منها حيث شئتم رغدا) أي واسعاً هنيئاً ونصبه على المصدرية أو الحاليـة مـن ضـمير المخاطبين وفي الكلام إشارة إلى حِلّ جميع مواضعها لهم أو الإذن بنقل حاصلها إلـى أي موضع شاءوا مع دلالة رغدا على أنهم مرخصون بالأكل منها واسعاً وليس عليهم القناعة لسد الجوعة ويحتمل أن يكون وعداً لهم بكثرة المحصولات وعدم الغلاء"[2]

ويلاحظ تأثير كلام النحاة في أن حيث ظرف للمكان في كلام المفسرين يظهر ذلك في قوله (إلى حِلّ جميع مواضعها لهم) ولكنه عبر عن إحساسه بمعنى الزمان فيها عندما قال (ويحتمل أن يكون وعداً لهم بكثرة المحصولات). ولا أرى داعياً لحصرها في هذه الآية بدلالة المكان.

وفي القرآن الكريم آيات أخرى يمكن أن تحمل دلالة (حيث) منها على الزمان والمكان، ومنها:

(1) المصدر السابق ج1 ص303.
(2) تفسير روح المعاني (تفسير الألوسي) ج1 ص342.

- قوله تعالى في سـورة الأعـراف 182: " وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ".

- وقوله تعالى في سورة النحل (26): "وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ".

- وقوله في سورة النحل (45): "أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ".

- وقوله تعالى في سورة طه (69): "إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَـٰحِرٍۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ". ولعل في هذه الآية دليلاً قاطعاً على أن حيث هنا للزمان فليس أمر الساحر وعمله مرتبطين بمكان محدد ليفلح فيه أو لا يفلح، بل إنه لا يفلح كيـده فـي أي وقت يمارس فيه سحره وكيده.

2- استعمال (حيث) في الحديث الشريف

- من الأحاديث الشريفة التي وردت فيها (حيث) ما روي عن ابن عباس، رضـي ا عنهما، قال: قال رسول ا – صلى ا عليه وسلم- " من لزم الاستغفار جعل ا له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فَرجا، ورزقَه من حيث لا يحتسب"[(1)] و (من حيث لا يحتسب) هنا تحتمل أن تدل على الزمان أو المكان، ولعـل دلالتهـا على الزمان أكثر وضوحاً وأقرب إلى سياق الحديث الـذي يـدعو إلـى لـزوم الاستغفار. وعلى هذا الفهم يمكن تفسير الآيات الكريمة أيضاً التي وردت بالمعنى نفسه، كقولـه تعـالى: "وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۞ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ "[(2)]

(1) رياض الصالحين، 686.
(2) سورة الطلاق، الآيتان 2- 3.

3- (حيث) في النصوص الشعرية

ترد (حيث) كثيراً في الشعر العربي، قديمه وحديثه، ومن النصوص الشعرية ما تكون دلالتها فيها محصورة في المكان، ومنها ما تكون فيها للزمان بوضوح وجلاء، ومنها ما يحتمل الأمرين جميعاً. وفيما يأتي بعض الشواهد على هذه الدلالات.

أ- (حيث) ظرف للمكان.

قال النحاة إن (حيث) ظرف للمكان غالباً، وقد رأيت أن أورد هنا بعض الشواهد الشعرية على دلالتها هذه، فضلاً عما سيرد بعد قليل من شواهد على استعمالها بدلالة الزمان، حتى تتكامل صورتها في الاستعمال، وحتى تتسنى ملاحظة تنوع الدلالة بين المكان والزمان ثم كيف تتطور دلالة الكلمة إلى معانٍ جديدة تظهر فيما بعد.

- ومن دلالتها على المكان قول المرار بن منقذ: [1]

أنا من خِنْدِفَ في صيابها ... حيث طاب القِبض منه وكثُر
فهي هيفاء هضيم كَشْحها ... فخمة حيثُ يشد المؤتزر

- وقول عروة الصعاليك: [2]

وما طالب الحاجاتِ من حيث تُبتغى ... من الناس إلاّ من أبر وشمرا

- وقول سويد بن أبي كاهل اليشكري: [3]

فر مني هارباً شيطانُه ... حيث لا يعطي ولا شيئاً منَع

(1) المفضليات، ص88 وص 90.
(2) الشعر والشعراء 675/2 والحماسة البصرية 343.
(3) المفضليات، ص201.

- وقول خريم بن أوس بن حارثه بن لأم الطائي يمدح الرسـول صـلى ا عليـه وسلم: [1]

أنت لما ولِدتَ أشرقـت الأرض وضاءت بنـورك الأفُـقُ

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودعٍ حيث يخصف الورقُ.

- وقول الأعشى: [2]

فلما أضـاء الصـبح قـام مبـادراً وحان انطلاق الشاة من حيث خيمـا

- وقول الأعشى أيضاً في قصيدة ملئت بالعظات والحكم: [3]

وآس سـراة الحـي حيـث لقيـتهم ولا تك عن حمـل الرباعـةِ وانيـا

- وقول بشر بن أبي خازم: [4]

أسـائل صـاحبي ولقـد أرانـي بصـيراً بالظعـائن حيـث صـاروا

- وقوله أيضاً: [5]

فحـاطونـا القَصـا ولقـد رأونـا قريبـاً حـيثُ يستمـع السـرار

والقصا هو المتنحى، أي تباعدوا وهم حولنا.

- وقوله أيضاً: [6]

فأبلـغْ، إن عرضـت بنـا، رسولاً كنانـة قومنـا في حـيث صاروا

---

(1) الحماسة البصرية، ص610.
(2) ديوان الأعشى، ص188.
(3) المصدر السابق، ص217، والرباعة ما يحتمله سيد القوم من الديات والمغارم.
(4) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، ص57.
(5) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، ص62.
(6) المرجع السابق، ص65.

- وقوله أيضاً: (1)

بكـل قـرارةٍ من حـيث جالـت ركيـ ـةُ سنْبـكٍ فيهـ ـا انهـيار

- وقول الحطيئة: (2)

فلــم اشــتم لكــم حســباً ولكــن حــدوتُ بحيــثُ يســتَمع الحــداء
فـلا وأبيـك مـا ظلمـت قريـع بأن يبنـوا المكـارم حيثُ شاءوا.

- وقول الحادرة: (3)

فـتَرى بحـيثُ توكّـأت ثفِناتهـا أثـراً كمفتحص القطـا للمضجـع

- وقول الفرزدق: (4)

وكيف ترجـون تغميضـاً وأهلكـم بحـيث تلحس عن أولادها البقـر

- وقول زياد بن حمل: (5)

يا ليت شعـري عن جنبي مكشحةٍ وحيث يبنى من الحـنّاءةِ الأُطـُم

- وقول عبدا بن الزبير: (6)

رأى خَلّتى من حيث تخفـى مكانُها فكانـت قـذى عينيه حتى تجلـّت

- وقول كثيرعزة: (7)

(1) المرجع السابق، ص67.
(2) ديوان الحطيئة، ص55.
(3) شرح ديوان الحادرة، ص66.
(4) ديوان الفرزدق، ص166.
(5) الحماسة البصرية/ ص519. ومكشحة نخل في جذع الوادي والحناءة رمل، والأطم الحصن وكـل بناء مرتفع.
(6) الحماسة البصرية، ص425.
(7) نقلاً عن إعراب الجمل وأشباه الجمل، ص210.

خليلـي هـذا ربـع عـزة فاعقِلا قلـوصيكُما ثم ابكيـا حيثُ حلّت

ب- (حيث) ظرف للزمان

- ومن الشواهد التي وردت فيها (حيث) دالة علـى الزمـان، قـول ذي الإصـبع العدواني: [1]

يا عمرو إلا تَدع شَتْمـي ومنْقِصتي أضربك حيثُ تقول الهامة اسقوني

وهي هنا بمعنى (حتى، أو بمعنى إلى أن)

ولكن أحد الدارسين يرى أن (حيث) هنا اسم مبني يعرب بدلاً من المفعول به[2]. ولكني أرجح أنها ظرف للزمان بمعنى حتى أو إلى أن، ويؤكد هذا قصة هذا المثـل في العصر الجاهلي (حيث) كان الناس يعتقدون أن (القتيل الذي لم يؤخذ بثأره يخرج من هامته طائر يسمى الهامة، فلا يزال يقول: اسقوني، اسقوني، حتـى يقتـل قاتلـه فيسكن). [3]

- ومنها قول عبد يغوث بن وقاص الحارثي[4]:

وقد كنت نحار الجزور ومعمِلَ الـ.... مطِي وأمضي حيث لا حَي ماضيا

ودلالتها على (حين) واضحة

- ومنها قول امرئ القيس[5]:

ولو أن نومـا يشـترى لاشتريتـه قليلاً كتغميض القطا حيث عرسا

يريد أن نومه قليل كنوم القطا الذي لا يكاد ينام إلا غراراً. وربما كانت دلالتهـا على الزمن واضحة.

---

(1) المفضليات، ص160.
(2) إعراب الجمل وأشباه الجمل، ص210.
(3) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص494..
(4) المفضليات، ص 158والحماسة البصرية 294.
(5) شرح ديوان امرئ القيس، ص117.

- ومنها قول زهير بن أبي سلمى في معلقته[1]:

فشـد ولـم يفْزع بيوتـاً كثـيرة لـدى حيث ألقت رحلهـا أم قشعم

ويروى ولم تفزع بيوتٌ كثيرةٌ، وفي رواية أخرى أيضاً (ولم ينظر بيوتاً) أي ولم يمهل والفزع الهبوب للنصرة. وأم قشعم كنية المنية، ومعناه أنه شد في الحرب ولـم يمهل أحداً عندما واجه الموت في القتال. وليس خطأ أن يراد بها المكان.

- ومنها قول الفرزدق يمدح علياً زين العابدين بن الحسين[2]:

يغضى حياء ويغضـى من مهابتـه فـلا يكـلّـم إلا حـيثُ يبتسـم

- ومنها قول الفرزدق أيضاً يفتخر[3]:

إذا هبط الناس المحصب مـن منـى عشِيةَ يوم النحر من حيـث عرفـوا

ترى الناس ما سِرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنـا إلى الناس وقفـوا

أي عندما يغادر الناس (الحجيج) عرفات، عشية يوم النحر، وهنـا يريـد أنهـم يهبطون من عرفات إلى منى في مساء يوم عرفة وهو المساء الذي يسبق يوم النحر.

- ومنها الشاهد المشهور الذي ترويه كتب النحو دون أن تنسبه إلى قائل (حيث) إن قائله مجهول، وقد أورده ابن هشام وابن عقيل، وغيرهما، وهو:

حيثما تَستَقِم يقدر لك ا نجاحاً في غابر الأزمان

وقد اهتم ابن هشام بهذا الشاهد النحوي، وذكره في كتبه الثلاثة التي ذكرت فـي هذا البحث، وقد أعربه إعراباً تاماً في قطر الندى، (حيث) قال:

حيث: اسم شرط جازم يجزم فعلين، الأول فعل الشرط والثاني جوابه وجـزاؤه، وهو مبني على الضم في محل نصب لأنه ظرف زمان... وما زائدة.[1]

(1) ديوان زهير ص22.
(2) ديوان الفرزدق، ص512.
(3) المصدر السابق، ص392.

وهو كما ترى يقرر أنه ظرف زمان دون تردد، وقد مر بنا هذا الشاهد من قبل.

- وفي الشعر الحديث، يقول أحد الشعراء المعاصرين من قصيدة بعنـوان (الحركـة الأولى ، وتريات ليلية)

في تلك الساعة حيث تكون الأشياء بكاء مطلق
كنت على الناقة مغموراً بنجوم الليل الأبدية
استقبل روح الصحراء
يا هذا البدوي الضالع بالهجران
تزود قبل الربع الخالي قطرة ماء.

ج- (حيث) تحتمل دلالة الزمان أو المكان

وفي قصائد الشعراء، وكتابات الأدباء، أبيات كثيرة، ونصوص يحار القارئ في تصنيف (حيث) فيها، فهي تحتمل دلالة الزمان في وجه، ودلالة المكان في وجه آخر من وجوه الفهم والتأويل ومن ذلك قول طرفة من العبد: [2]

للفتـى عقـ ـل يعـ ـيش بـ ـه حـ ـيث تهـ ـدى ساقَـه قدمـ ـه

وقد اختلاف الدارسون حول دلالة (حيث) هنا فقال شارح الديوان "أي حيث ينتقل أو يغترب والمعنى أن العاقل يحسن التصرف في كل مكان) [3] وفي إعراب الجمـل قال "أي في زمن هدايته، نقلاً عن حاشية الدسوقي 143/1، وقال إنها تحتمل المكـان أيضاً" [4]

- ومن ذلك قول السموأل بن عادياء [5]:

ومـا مـات منا سيـّد حتْفُ أنفـه ولا طُـلّ منا حيث كـان قتيـل

(1) شرح قطر الندى وبل الصدى، ص121-122.
(2) ديوان طرفة بن العبد، ص154.
(3) ديوان طرفة بن العبد، ص154.
(4) إعراب الجمل وأشباه الجمل، ص210.
(5) الحماسة البصرية، ص148.

وعلى الرغم من إضافة حيث إلى (كان) التي قد توهم القارئ في الخاطر الأول أنها تحدد المكان، إلا أن البيان الأنسب للبيت يقول إن دم أبنائنا لا يطل أيا كان مكان قتلهم أو زمانه.

- ومثال ذلك قول الكميت بن زيد بن الأخنس: [1]

فلا زلت فـيهم حيـث يتّهمـونني... ولا زلـت فـي أشـياعهم أتقلّـب
أناس بهم عـزتْ قُـريشٌ فأصـبحت وفيهم خِبـاء المكرمـات المطنّـب
أولئك إن شطّتْ بهم غُربةُ النّـوى أماني نفسي والهوى حيث يقْربـوا

فهم يتهمونه بالقرب منهم، أم يتهمونه بدوام صلته بهم، وهو يقول هؤلاء هـم أماني نفسي على الرغم من بعدهم عني، وأن هواه في اقترابهم منه، والبعد في المكان يسبب البعد في الزمن، فهم أحباؤه سواء اقتربوا منه أو ابتعدوا عنه. فما دلالة (حيث) في هذه الأبيات؟ أظن أننا نقيد واسعاً إن حصرنا دلالتها بمكان محدد، أو زمن محدد، ولا سيما أن الشاعر يقول (فلا زلت منهم) و (ولا زلت في أشياعهم). فلندع (حيـث) كما يذهب بها القلب دالّة على معاناة الشاعر في حب أحبابه في اغترابهم واقترابهم.

- ومن ذلك قول ذي الرمة غيلان[2]:

لنا موقف الداعـين شُعثـاً عشيـةً وحـيث الهدايـا بالمشاعر تُنْحـر

فهو يقول إنه يقف موقف الداعين عشية عندما تنحر الهدايا في المشاعر المقدسة، أو أنه يقف للدعاء عشيةً في المكان الذي تنحر فيه الهدايا.

- ومن ذلك قول الأخطل[3]:

فإنـا حـيث حلّ المجـد يومـاً حللنـاه وسرنـا حـيث سـاراً

فحيث الأولى تدل على الزمان، وحيث الثانية تدل على المكان.

(1) الحماسة البصرية، ص375.
(2) الحماسة البصرية، ص569.
(3) ديوان الأخطل، ص

- ومن ذلك قول ابن زريق البغدادي يخاطب زوجه التي غادرها في بغداد[1]:

جاوزتِ في نُصحِهِ حـداً أضـر به..... من حيث قدرت أن العـذل ينفعـه

والدهر يعطي الفتى من حيث يمنعه عفواً، ويمنَعـه مِن حيثُ يطْمِعـُه

وقد وردت (حيث) في هذين البيتين في موقع الاسم المبني في محل جر، وتحتمل (حيث) فيهما أن تدل على المكان، أو على الزمان، وفق فهم القارئ، فالمعنى يمكـن أن يكون أن العذل يمكن أن يضره في الوقت الذي يظن فيه أنه ينفعه، وأن الدهر قـد يعطى الفتى في الوقت الذي يتوقع فيه أن يقتّر عليه، وقد يقتّر عليه في الوقت الـذي يتوقع أن يعطيه. وقد يراد بها المكان أيضاً بالمعنى نفسه.

4- (حيث) في النصوص النثرية.

أ- (حيث) ظرف للمكان

- من ذلك ما ورد في مقدمة كتاب سيبويه نقلاً عن عدد من المصادر الكبرى منها: السيرافي والزبيدي وابن الأنباري وياقوت والزجاجي أن سيبويه جاء البصرة مع أسرته وطفق يطلب العلم بها "فكان الحديث والفقه من أول ما يـدرس العلمـاء، فأعجبه ذلك وصحب الفقهاء، وأهل الحديث وكان يستملي الحديث على حماد بن سلمة، قال القفطي: وكان شديد الأخذ، فبينما هو يستملي قول النبي صلى ا عليه وسلم "ليس من أصحابي إلا من شئت لأخذت عليه لـيس أبـا الـدرداء". فقـال سيبويه: ليس أبو الدرداء، وظنه اسم ليس، فقال حماد: لحنت يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبت وإنما ليس ها هنا استثناء، فقال لا جرم، سأطلب علماً لا تلحنني فيه، فلزم الخليل فبرع"[2].

فقوله: ليس هذا حيث ذهبت يعنى أنك ذهبت إلى وجه آخر أو إلى اتجـاه آخـر غير ما يريده الحديث الشريف، و (حيث) هنا أقرب ما تكون إلى المكان، ولكنها

(1) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج4، القسم الثاني، ص25.

(2) كتاب سيبويه، ج1 ص7.

في الحقيقة تدل على الظرفية المطلقة ويلاحظ هنا أثر السياق في بيان دلالة حيث فلولا القرائن المحيطة بها ما كانت دلالتها هذه، وهي فيما أرى ظرفيـة عامـة يشعر المرء في قرارة نفسه بمعناها، ولا يرى أن يقيدها بمكان محدد أو زمـن محدد، بل هي بالتحديد كما جاء في النص (ليس هذا حيث ذهبت).

- ومن ذلك ما ورد على لسان الزمخشري وهو يفسر سـورة آل عمـران، الآيـة (38) وهي قوله تعالى "هنالك دعا زكريا ربه...." قال الزمخشري "هنالك، فـي ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب، أو في ذلـك الوقـت، فقـد يستعار هنا وثم وحيث للزمان، لما رأى حال مريم في كرامتها على الله ومنزلتها رغب في أن يكون له ولد..."[1] وأرى أن (هنالك) في هذه الآية تدل دلالة قاطعة على الزمن لأن الذي أثار زكريا عليه السلام وفتح باب الأمل لـه، لـيس هـو المكان الذي نشأت فيه مريم عليها السلام، بل هو الحال الذي رافقها فاستشـرفت نفسه أن يرزقه الله عز وجل بولد رغم أنه بلغه الكبر وامرأته عاقر.

والشاهد هنا أن الزمخشري يقر أن (حيث) تستخدم في الزمان والمكـان، علـى الرغم من أنه هنا استخدمها بدلالة المكان كما هو واضح.

وفي العصر الحديث صار الناس ينظرون إلى حيث نظرة عامة، على أنها ظرف يكون للمكان أو الزمان وفق حاجة المتكلم وحاجة الموقف أو السياق الذي يكون فيه النص، وتأتي دلالتها للمكان أو للزمان تلقائية غير مرسومة من قبل.

من ذلك هذه الجمل التي وردت في نشرة للجنة الثقافية لرابطة الشـباب المسـلم العربي عام 1985، ومقرها الولايات المتحدة، بعنوان: كيف تنظم وقتـك: "تنهـدات صدرت من مسلم في لحظة تنبه... فعرف قيمة الساعات والدقائق وعلم أن الأنفـاس معدودة عليه،... علم بأن كل يوم هو عليه شهيد، ثم يمضي حيث لا يعـود.." وورد

(1) الكشاف ج1 ص427.

فيها أيضاً: "انظر الجدول رقم (1) كمثال على ذلك، حيث تلاحظ أن المجموع هو 13 ساعة و 55 دقيقة من أصل 24 ساعة، والسؤال هو: أين ذهب باقي الوقت؟.[1]

ب- (حيث) ظرف للزمان.

ومن النصوص التي وردت فيها (حيث) دالة على الزمان ما ورد في كتاب الأعراب[2] الرواة من أن الأصمعي وجد أعرابية تسأل بمنى،

- فقال لها: يا أمة ا ، تسألين واك هذا الجمال؟
- قالت: قّدر ا فما أصنع؟
- قال: فمن أين معاشُكم؟
- قالت: هذا الحاج، نسقيهم ونغسل ثيابهم.
- قال: وإذا ذهب الحاج فمن أين؟
- فنظرت إليه وقالت: يا صات الجبين، لو كنا نعيش من حيث نعلم ما عشنا.

ترى ما الذي أرادته هذه الأعرابية؟

أتراها أرادت أنها لا تعلم المكان الذي فيه رزقها. أم هي أرادت أنها لا تعلم الزمان الذي يأتي إليها فيه رزقها. كل ذلك ممكن. وأظن أن سياق الحكاية يرجح دلالة الزمان في كلمة (حيث) لأنها كانت جواباً عن سؤال يتضمن دلالة الوقت.

وفي العصر الحديث أصبح استعمال (حيث) ظرفاً للزمان أمراً عادياً كأن الناس يدركون دلالتها الظرفية العامة، ثم يستخدمونها في التعبير عن الزمان أو عن المكان دون قيود، أي كأن الناس عندما رأوا وقرأوا كيف استعملت (حيث) في القرآن الكريم والحديث الشريف وشعر العرب ونثرهم تكونت لديهم دلالة عامة لهذا الظرف، وهذه الدلالة الظرفية العامة أصبحت في صميم ثقافتهم اللغوية، فصاروا يستخدمون (حيث)

(1) قرأت هذا في النشرة المشار إليها وأردت بذلك بيان صورة (حيث) في سياق الحياة اليومية.
(2) الأعراب الرواة، ص285.

في كلامهم اليومي في الدلالة على الزمان أو المكان، كما يقتضي الحال. حتى صار من المألوف الشائع أن نستمع إلى مثل هذه العبارات تجري على ألسنة الناس:

- لا تتأخر عن الساعة العاشرة حيث سيفتتح المؤتمر.
- أمر بك يوم الجمعة بعد الصلاة لنذهب معاً حيث ستقام المباراة الفاصلة على الكأس.
- نلتقي بعد صلاة الصبح كل يوم حيث يبدأ مشوارنا اليومي في المشي مدة ساعة.

ولو أننا أصغينا إلى مجموعة من الناس، يحتشدون في مؤتمر مثلاً أو في إحدى الأسواق، أو في أي تجمع آخر لرصدنا كثيراً من العبارات التي يستخدمون فيها حيث بطلاقة في دلالات المكان والزمان والسببية (أي بمعنى لأن أو بما أن) كما سنرى بعد قليل. وسأورد فيما يأتي بعض النصوص الواقعية استعمل الناس فيها حيث دالة على الزمان.

من هذه النصوص ما ورد في النص الآتي من كتاب الطائفية وفقه الخلافة: "ولو أن الأمة كانت في عصورهم قد ملكت ولاية أمرها ولم تكمم أفواه أبنائها مثلما ملكته في عهد الرسول – صلى ا عليه وسلم- والراشدين حيث كان يقف المسلم من عوام الناس يقول لولي الأمر لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا".[1]

وفي الكتاب السابق نفسه ورد ما يأتي: "....أن تلتفت الشعوب الأوروبية إلى الإسلام فتختاره بديلاً حضارياً حيث تتطلع هذه الشعوب إلى المخاص الذي يزداد شعورها بالحاجة إليه يوما بعد يوم وحيث بدأت الأصوات ترتفع تؤكد الحاجة الماسة إلى عالم جديد بحضارة بديلة"[2].

وكتبت جريدة الرأي الأردنية اليومية التعليق الآتي: "يعتبر حاكم تكساس الجمهوري جورج بوش الابن (54 عاما) المرشح لرئاسة الولايات المتحدة مبتدئاً

(1) الطائفية وفقه الخلافة، ص263.
(2) الطائفية وفقه الخلافة، ص383. والأفصح أن نقول (تؤكد الحاجة) وحذف (على) بينهما.

نسبياً في عالم السياسة حيث خطا خطواته الأولى عام 1994، لكـن والـده الـرئيس السابق جورج بوش كان يرشده في هذا المجال".[1]

وفي بحث فلسفي عنوانه (أبو الوليد الباجي ومناظراته العلمية) ورد مـا يـأتي: "وابن حزم على رأس المتعصبين للمذهب الظاهري وقد ظل هذا التعصب للمـذاهب الأدبية قائماً في الأندلس حتى أخذ نجمها يخبو وبدأت مدنها تتساقط على يد الأسـبان حيث تفرق أبناء الشعب في الأمصار الإسلامية"[2].

إن استعمال حيث للدلالة على الزمان غدا أمراً بدهياً في حياة الناس، وقد رأيـت نصوصاً كثيرة في الصحف والمجلات والكتب وفي كلام الناس العادي تستعمل حيث للزمان استعمالاً سهلاً غير متكلف، من ذلك أيضاً ما نشرته جريدة الرأي الأردنية عن انتخابات نقيب الصيادلة، قالت: "يحسم التيار الإسلامي في نقابة الصيادلة اليوم الثلاثاء مرشحه لمنصب النقيب... ويتنافس على هذا المنصب الصـيادلة... ... ... إلا أن... لا يزال يلوح بترشيح نفسه لمنصب النقيب في الانتخابات القادمة حيث كـان أمهـل التجمع المهني الإسلامي للصيادلة البت في ترشيحه لمنصب النقيب يوم الأحد الماضي حيث لم يتم ذلك"[3]. ومنها أيضاً في الصحيفة نفسها[4] :" وبين قرار الحكم أنه وبالرغم من زواج شقيقته بعقد صحيح وبموافقة الأب إلاّ أن الشقيق كان يفكر بقتلها حيث قـام الأب بالسفر إلى مصر وزار ابنته هناك....؟

وفي بحث عن الخازن في كتاب (أبو جعفر الخازن)، حياته ومؤلفاته، ورد مـا يأتي: "الخازن رسول الصلح، يقول مسكويه في حوادث سنة 342هـ في الصراع بين السامانيين والبويهيين حيث احتشد الجيشان للقتـال لكـن دارت بينهمـا مفاوضـات الصلح".[5]

---

(1) جريدة الرأي، العدد: 11018 بتاريخ 2000/11/8م.
(2) بحث نشر في مجلة جامعة النجاح الوطنية بنابلس، أغسطس (آب) 2000م.
(3) جريدة الرأي، العدد: 10737 بتاريخ 2000/2/1م.
(4) جريدة الرأي، العدد: 12610 بتاريخ 2005/3/31.
(5) أبو جعفر الخازن، حياته ومؤلفاته، ص62.

5- (حيث) في لغة القانون

يعد استخدام (حيث) في لغة القانون تحولاً كبيراً في دلالتها، وانعطافاً واسعاً في تطورها نتيجة الاستعمال. وقد بدأ هذا التحول تدريجياً عندما استخدم الناس (حيث) في تراكيب يشعر القارئ أنها تفيد السبب، أو تقدم العلة لحدوث أمر مـا، ولا سـيما أن السياق هو الذي يشكل دلالة التركيب اللغوي. فهي قد تفيد المكان أو الزمان ولكنهـا تشير في الوقت نفسه إلى سبب حدوث الفعل.

- ومن ذلك ما نفهمه في قول امرئ القيس يمدح سعد بن الضباب عندما حمـاه مـن بطش الليث وهو عامر بن جوين الطائي الذي كاد يسطو عليه وعلى ماله: (1)

منعت الليثَ مـن أكـل ابـن حجـرٍ وكاد الليثُ يودي بابن حجر

منَعـتَ، فأنـْتَ ذو مـن ونُعمـى علي ابن الضبـاب بحـيث ندري

ويريد بابن حجر نفسه. فكأنه يريد أنك منعتني فأنا لذاك السبب أدين لـك بـالنعمى والفضل.

- ومن ذلك قول بشر بن أبي خازم: (2)

فَهـلْ يقْضـي لبـانَتَهـا إلينـ ـا بحـيث انتـابنـا إلا سـريـع

يريد أنه لا يقضي حاجته ويوصله إلى حبيبه البعيد، الذي انتابه إليه الشـوق إلا فرس سريع.

- ومن ذلك قول الحطيئة: (3)

وبلـــدةٍ جبتُهـــا وحـــدي بيعمأـــةٍ إذا السراب على صحرائها اضطربا

بحيث ينسـى زمـام العنْس راكبها ويصبح المرء فيها ناعِسـاً وصِبـا

(1) شرح ديوان امرئ القيس، ص109.
(2) ديوان بشر بن أبي خازم، ص98.
(3) ديوان الحطيئة، ص12.

وحيث هنا دلالتها على الزمن واضحة، ولكنها قد تفيد أيضاً معنى السـبب إذ إن المسافر في هذه الصحراء الواسعة يحس بالتعب والفتور حتى يكاد ينسى راحلته.

- ومن ذلك ما نتداوله في حياتنا العامة كثيراً عندما نَضع (حيث) أداة لبيان السبب في الفعل، كأن نقول، مثلاً "عتب علي فلان حيث ذكرته بما استعاره من كتب".

ومما يحتمل دلالة السبب في استعمال حيث، ما ورد تحت عنوان (مشاركة الموظفين في الشؤون الوظيفية) في النص الآتي: "...ويتم ذلك عن طريق قيام الرئيس الإداري بتشكيل لجنة أو مجلس من بين العاملين في جهازه الإداري لمعرفة رأيهم في المسائل المتعلقة لشؤون العمل، بحيث لا يصدر أي قرار إلا بتوصية من هذه اللجنة أو هذا المجلس سواء بالاتفاق أو بالأغلبية. (1)

وفي مكان آخر من هذا البحث ورد ما يأتي:

"في ضوء ما تقدم نرى أن يقوم مشروعنا الدستوري بتعديل المادة (120) من الدستور بحيث يتم تنظيم شؤون الموظفين بموجب قانون وليس بموجب نظام"(2)

ثم تحولت حيث في الاستعمال الواقعي، ولا سيما في مجال القانون، والقضاء والمحاكم تفيد معنى الشرط، كأنك تقول (بما أن) أو (لأن). فإذا قال محام مثلاً: حيث إن الشاهد لم يحضر، وحيث إن المادة كذا من القانون تجيز تأجيل القضية فأنا أطالب بتأجيل الجلسة إلى يوم آخر. وهذا أمر مألوف في عمل القضاة والمحامين. ويلاحظ أن (حيث) هنا أفادت معنى الشرط دون أن تلحقها (ما) الزائدة. واذكر هنا ملاحظة دقيقة للفراء إذ أجاز أن تكون (حيث) اسم شرط جازم يجزم فعلين دون اتصالها بما ولم يوافقه أحد. (3) وقد آن الوقت أن نعود إلى قول الفراء، ونعيد دراسته في ضوء الواقع الحي لاستعمال حيث في الوقت الحاضر.

وقد وردت نصوص كثيرة في ملفات القضاء استخدمت فيها (حيث) بمعنى (بما أن):

---

(1) دراسات وأبحاث في الإدارة العامة والقانون الإداري، ص19.
(2) المرجع السابق، ص87.
(3) انظر المعجم الوافي في النحو العربي، ص149.

- من ذلك ما ورد في مجلة نقابة المحامين، التي تصدرها نقابة المحامين في الأردن، نص مرافعة طويلة، ساقتطف منها الجمل التي ترد فيها (وحيث إن) بمعنى (بما أن) لكي نرى أن هذه (الحيثيات) الكثيرة في المرافعة هي التي تُفضي في النهاية إلى القرار الحاسم في الموضوع:

- وحيث إن المستدعي نُقل من ملاك ديوان المحاسبة إلى ملاك مؤسسة تنمية أموال الأيتام اعتباراً من تاريخ 2002/10/31 بدون درجته...
- وحيث إن العقد الذي حرر بناء على قرار دولة رئيس الوزراء تضمن أن المدة التي يقضيها المستدعي بموجب هذا العقد تعتبر خدمة تابعة للتقاعد المدني...
- وحيث إن المادة (1/أ/60) من نظام الخدمة المدنية المشار إليها التي استند إليها دولة رئيس الوزراء في إصدار قراره بتعيين المستدعي في ملاك مؤسسة تنمية أموال الأيتام، نصت...
- وحيث إن مساعد رئيس النيابة العامة الإدارية قد صرح في محضر جلسة 2004/9/21 بأنه لا توجد أي علاوة للمستدعي سوى العلاوة العائلية فقط (من خارج مبلغ ال (700) دينار)...
- وحيث إن المادة (4) المعدلة من قانون التقاعد المدني رقم (24) لسنة 1959 نصت...
- وحيث إن المادة (19) المعدلة من القانون ذاته قد نصت...
- وحيث إن الراتب الشهري الأخير للمستدعي هو (700) دينار كما أسلفنا...
- وحيث إن المستدعى ضدها (لجنة التقاعد المدني) قد ذهبت بقرارها المشكو منه إلى خلاف ما توصلنا إليه فيكون قرارها مخالفاً للقانون مما يقتضي إلغاءه...
- لهذا وبناء على ما تقدم نقرر... [1]

(1) مجلة نقابة المحامين، الأعداد 4-6 لشهور نيسان أيار حزيران السنة 53، الصفحات 644-646.

- وفي النظام الدستوري الأردني ورد النص الآتي:
- وحيث إن صلاحية السلطة التنفيذية في إعلان نفاذ قانون الدفاع وبدء سريانه هي صلاحية مطلقة وغير معلّقة على موافقة أي سلطة أخرى فلا يجوز أن يسن قانون الدفاع نصاً من شأنه أن يقيد هذه الصلاحية. (1)
- وورد في أحد عقود العمل في مكتب أحد المحامين ما يأتي:
- وحيث إن الفريق الأول قد وافق على استخدام الفريق الثاني ضمن أحكام قانون العمل الأردني، فقد وافق الطرفان على الشروط التالية".

ومما يدل على أن (حيث) استخدمت هنا أداة للشرط وجود الفاء في جوابها (فقد وافق...)

- وفي مرافعة وكيل المدعيتين في القضية الصلحية لدى محكمة صلح حقوق عمان الموقرة، وردت الفقرات الآتية: (2)
- وحيث إنه من المقرر أن من حق المالك الذي انتقلت إليه ملكية العين المؤجرة، الحق في مطالبة المستأجر بجميع حقوق ....
- وحيث إن المدعى عليه لم يدفع الأجور المستحقة رغم إنذاره ....
- وفي مرافعة خطية مطولة مقدمة من وكيل المدعي لدى محكمة بداية حقوق عمان الموقرة في شهر حزيران 1992، وردت الفقرات الآتية:
- وتتلخص وقائع الدعوى كما هو واضح من لائحة الدعوى... أنه بتاريخ 1992/1/9... وقع حادث تصادم بين سيارة المدعي حيث كان يقودها... وبين السيارة رقم ـ ـ ـ العائدة ملكيتها للمدعى عليه الثاني التي كان يقودها ساعة الحادث المدعى عليه الأول حيث وقعت مسؤولية....

---

(1) النظام الدستوري الأردني 1921-1991، ص103.

(2) حجبتُ الأسماء الفعلية والوقائع الدقيقة في وثيقة المرافعة، لأنه ليس لنا غرض في عرضها.

- وقد أجرى المدعى الخبيرة على السيارة موضوع هذه الدعوى بواسطة خبير... لبيان قيمة نقصان القيمة.... حيث قدر الخبير مبلغ....
- وقد أثبت المدعي عن طريق الشهود جميع المصاريف التي تكبدها نتيجة تعطل سيارته لنقله من وإلى مكان عمله الكائن في منطقة الأزرق حيث إنه يسكن عمان جبل النزهة.
- .... وأنه تعطل بعد حادث السيارة من الذهاب إلى المزرعة حيث أصبح يذهب مرتين إلى ثلاث مرات أسبوعياً.
- وحيث إن خطأ المدعى عليه الأول هو الذي أفضى مباشرة إلى عطب....
- وحيث إن المدعي يذهب إلى عمله ثلاثة أيام في الأسبوع....
- وحيث إن المدعى عليهما ملزمان بدفع قيمة هذا الضرر.
- لذا ولجميع ما تقدم......

أرأيت كم مرة وردت (حيث) في هذه المرافعة، أضف إلى ذلك أن الأستاذ المحامي، وكل محامٍ تقريباً يصمم مرافعته وفق عدة عناوين فرعية، هي: أولاً: من حيث البينات، ثانياً: من حيث القانون

فقد وردت (حيث) في هذه المرافعة عشر مرات، وإذا أردنا الاختصار نقول إن عشر **حيثيات** في هذه المرافعة. وهذه الكلمة أو هذا المصطلح، هو المصطلح الدستوري أو القانوني الدارج هذه الأيام في أروقة القضاء والمحاكم وما يتعلق بها من وثائق وسجلات. فيقال: حيثيات الحكم، وحيثيات القضاء، وحيثيات المرافعة. وحيثيات الاعتراض، وهكذا...

- وجاء في جريدة الغد بعنوان (حيثيات الاعتراض) ما يأتي: " وعلمت الغد أن هذا اللاعب ممنوع من اللعب داخل لبنان وقد دخل الأردن بوثيقة سفر مؤقتة. ولم يدخل بجواز سفر لبناني كما أنه شارك في بطولة دبي الأخيرة رغم أنها ودية كلاعب محترف وليس (كلبناني)".

وقد كان من الميسور أن أذهب إلى مكاتب بعض السادة المحامين أو إلى ملفات بعض المحاكم، واستخرج منها عشرات من لوائح الدعوى ونصوص المرافعات، ولكني اكتفيت بهذه الأمثلة الدالّة لأنها صورة عن كل ما قد يجمع من بيانات وحيثيات في ملفات المحاكم.

هذه إذن صورة (حيث) في قواعد اللغة، فهي ظرف مكان فقط عند جل النحاة، بل إن بعضهم كان يعيب على من لا يرى ذلك كما رأينا في اعتراض ابن بري على سيبويه على الرغم من أن سيبويه نفسه يقول إنها مكان. وهذه صورتها في الاستعمال قديماً وحديثاً، وقد رأينا أن استعمالها للزمان قد يساوي استعمالها للمكان، ولاسيما في العصر الحديث، ثم إنها الآن أصبحت مصطلحاً قانونياً عاماً يستخدمه الناس.

ترى هل يمكن أن تكون (حيث) في طريقها هذا الطويل، وتطور دلالتها وصياغتها، مثلاً على التطور التاريخي للدلالة، وسبباً في الإسراع بكتابة المعجم التاريخي للغة العربية الذي طال انتظاره.

المصادر والمراجع

- الأخطل، أبو مالك غياث بن غوث التغلبي، شعر الأخطل، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، 1979.
- الأعشى، ميمون بن قيس، ديوان الأعشى، دار صادر، بيروت، دون تاريخ.
- الألوسي، محمد، الطائفية وفقه الخلافة عند الشيعة وأهل السنة، دار الشجرة للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى 2002.
- أولمان، ستيفن، دور الكلمة في اللغة، ترجمة وتقديم د. كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، 1988.
- باكير، حكمت حسن، النظام الدستوري الأردني، مؤسسة باكير للدراسات الثقافية، الزرقاء الأردن، 1992.
- بشر بن أبي خازم، ديوانه، قدم له وشرحه مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1994.
- البصري، صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري، كتاب الحماسة البصرية، تحقيق د.عادل جمال سليمان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة،1978.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار دار الكتب المصرية، القاهرة، 1952.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، 1984.
- الحادرة، قطبة بنت أوس، ديوان الحادرة، إملاء أبي عبد ا محمد بن العباس اليزيدي، عن الأصمعي، حققه وعلق عليه د. ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، 1980.

- الحطيئة، جرول بن أوس، ديوان الحطيئة، شرح أبي سعيد السكري، دار صادر، بيروت، 1981.
- الحمد، د. علي، وزميله يوسف جميل الزعبي، المعجم الوافي في النحو العربي، منشورات دائرة الثقافة والفنون، عمان، الأردن، 1984.
- الحوفي، د. أحمد محمد، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1962.
- الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى، كتاب معاني الحروف، حققه د.عبد الفتاح شلبي، دار الشروق، جدة، الطبعة الثانية، 1981.
- الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحق، كتاب حروف المعاني، حققه د. علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 1986.
- الزمخشري، محمود بن عمر، جارا ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، 1986.
- زهير بن أبي سلمى، شرح ديوان زهير، صنعة الامام أبي العباس ثعلب، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1995.
- ابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل، الأصول في النحو، تحقيق د.عبد الحسين الفتلي،مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1985.
- السندوبي، حسن، شرح ديوان امرئ القيس، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، 1982.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، كتاب سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، 1983.
- الشلقاني، د.عبد الحميد، الأعراب الرواة، دار المعارف بمصر، 1977.
- طرفة بن العبد، ديوان طرفة، تحقيق وتحليل ونقد للدكتور علي الجندي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1958.

- عبد الهادي، د. بشار، دراسات وأبحاث في الإدارة العامة والقانون الإداري، دار الفرقان، عمان – الأردن.
- العرموطي، صالح عبدالكريم وعدنان نجيب الرشدان، مجلة نقابة المحامين، نقابة المحامين، الأعداد 4-6. في شهور نيسان – حزيران، 2005 عمان، الأردن.
- عواد، د. محمد أحمد، أبو جعفر الخازن، حياته ومؤلفاته.
- الفرزدق، همام بن غالب، ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدم له علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1987.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق د. مهدي المخزومي و د.ابراهيم السامرائي، نشر وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، 1981.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، مجمل اللغة، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1984.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1979.
- القرطبي، أبو عبد ا محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1952.
- مطلوب، د. أحمد، عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى، 1973م.
- المفضل الضبي، المفضل بن محمد بن يعلى، المفضليات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، الطبعة السادسة.
- المزني، الإمام أبو الحسين، حققه وعلق عليه وقدم له د.محمود حسني محمود و د.محمد حسن عواد، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، 1983.
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1977.

- ابن هشام الأنصاري، أبو محمد عبد ا جمال الدين بن يوسف بن هشام،
- مغنى اللبيب عن كتب الاعاريب، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
- شذور الذهب، في معرفة كلام العرب، رتبه وعلق عليه وشرح شواهده عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، 1984.
- قطر الندى وبل الصدى، شرح محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر،
- يحيى، أحمد، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، مجلد 20/ العدد 1989/3.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2005/5/12.